

أصداء

في أدب



صلات الادب بالبيئة العامة والخاصة وتأثره بأحوالهما الطبيعية والاجتماعية والثقافية والسياسية مازالت تشغل النقاد ومؤرخي الادب والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وغيرهم. وبفضل هذا التأثير والتأثير تنكشف الروابط الوثيقة التي تشد الادب الى التاريخ وتصل التاريخ بالادب حتى لتجد صفحات وفصولا مما يدونه المؤرخون ترفل بأساليب ادبية جميلة وتزهو بصور وصيغ فنية فائقة^(١). كما تجد فصولا اخرى وكتبا ورسائل كتبها الادباء وشعرا كثيرا مما ينظمه الشعراء اشبه بالوثائق التاريخية التي لا يستغنى عنها المؤرخ^(٢). لهذا كان التاريخ وما يزال اقرب العلوم الانسانية الى الادب. وكثيرا ما اجتمعا في رجل واحد. وفي تاريخ الفكر العالمي والعربي العشرات من الاعلام الذين جمعوا بين الادب والتاريخ كابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة والصولي ومسكويه وغيرهم من الكتاب والمؤرخين القدماء^(٣). ولم يخف هذا المظهر من مصابيح الفكر والثقافة والادب حتى اليوم على الرغم من شيوع التخصص الدقيق

الضعف والاندثار، هذا سبب التفتت الشديد والصعوبة المنهجية البالغة التي يعاني منها الذين يدرسون مواقف الادباء من الاحداث بعد الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٤م لانها عصور انهيار الحكم العربي في العراق والشام ومصر

والحق ان الشعر والنثر العربيين يكشفان عن كثير من الاحداث التاريخية ويسلطان الاصواء من زوايا فنية وغير فنية على اسرارها وحفاياها. والظاهر ان اهتمام الشعراء والكتاب بأحداث عصرهم يزداد في عهود القوة والازدهار ويخفت في عصور

الغزو البرتغالي

الخليج العربي

بقلم الدكتور:

على احمد الربيدى

النبوية ومراثي آل البيت والشعر التعليمي وما شاكل ذلك .

وكان مد الشعر الديني طاغيا في شمال بلاد العرب ووصلت امواجه القوية الى ادب الجزيرة العربية فجرف تيار التصوف والزهد وتأثيراتهما السلبية فئات الشعراء واضعف استجاباتهم المباشرة لاحداث عصورهم وهمومها وازماتها وماسيها. فالغزو البرتغالي الذى يدور عليه هذا البحث كان اشد الاحداث خطرا في تاريخ شرقى جزيرة العرب وجنوبها في القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) ولكننا لا نكاد نجد له صدى يلفت النظر الا في الادب العماني، ولم نعتز له على اثر يذكر في الشعر الحضرى، ولا في شعر مناطق الخليج العربى التى اغار عليها البرتغاليون واختلوها مدة طويلة من الزمن كالقطيف والبحرين، ولعلنا واجدون شيئا اذا ما

والاندلس وخضوعها لسلطان الاعاجم من مغول وفرس وترك وفرنجة ، ولا تنس ان انفعال الادباء بهذا الحدث اوداك خلال تلك الحقبة المظلمة كان يتوارى تحت ركام النكسات والازمات والحن هذا فضلا عما اصاب الشعر والنثر من تدهور وجمود وجفاف وتخلف واستهلاك المواهب في الاعيب الصنعة البديعية واستنفاد القدرات الفنية في تفريخ البديع وتعقيده وتكبيد النتاج الشعرى والنثرى بقيوده الثقيلة^(١) . ولكن صعوبة الكشف عن مواقف ادباء العصور المتأخرة من الاحداث لا يعنى انهم عاشوا بمعزل عنها فلم يشعروا بها ولم تؤثر فيهم بشكل من الاشكال . كل ما فى الامر ان اسلوب مواجهة الحدث او التعامل واياه يتغير فيلجأ الاديب الى التلميح والعزم واللمز واللغز والتورية او التعبير عن الرفض والاحتجاج بالانسحاب من معترك الحياة والانسراف عن ادب الدنيا الى ادب الدين كشعر الزهد والشعر الصوفي والمدائح

توفرت المصادر وسمح الوقت بتوسيع هذه الدراسة^(٥) .

ان منهج بحثنا يحتم علينا ان لا ننقل بالتفاصيل التاريخية دراسات وافية عن الغزو البرتغالي وسنكتفي بلمحة تاريخية خاطفة تحدد المواقع المكانية والزمانية لابراز احداث الغزو ليتسنى لنا استقصاء انعكاساتها في الشعر والنثر والادب التاريخي .

لقد وقع اول احتكاك بين البرتغاليين والمشرق العربي عند وصول فاسكودي جاما الى موزمبيق سنة ١٤٩٧م واعتدائه على مينائها (سفالة) وصعوده شمالا الى ماليندي ومباسا وارهابه اهلهما وحكامها ثم ابحاره الى الهند بمعونة الملاح العربي ابن ماجد او ملاح مسلم اخر كما يرى بعض الباحثين^(٦) . وقد تحول هذا الاحتكاك الى صدام خطير في البحر والبر خلال رحلة دي جاما الثانية سنة ١٥٠٢م/ ٩٠٨ هـ لانه صمم على اغلاق البحر الاحمر بوجه الملاحة العربية بعد ان احتل كلوه وزنجبار على ساحل افريقية وكلكتا على ساحل الهند مرتكبا في البر والبحر في اثناء غزواته ورحلاته جرائم وحشية فظيعة ثم توالى احداث العدوان والرد على العدوان بين العرب والغزاة البرتغاليين . وقد تمكن الاسطول البرتغالي بقيادة دالميدا ثم الاميرال البوكيرك من احتلال جزيرة سوتطرة القريبة من عدن سنة ١٥٠٧م كما حاول البرتغاليون الاستيلاء على عدن نفسها فأرعدوا خائبين^(٧) . ثم اتجهوا الى سواحل عمان وأغاروا في طريقهم على المكلا وسواحل

حضر موت واستولوا على عدد من السفن العربية التجارية ثم قتلوا ملاحيها وركابها واحرقوا عددا منهم احياء بعد ان قطعوا آذانهم وانوفهم . وفي عام ١٥٠٨م هاجم البوكيرك مسقط فأحتلها بعد ان قاومت مقاومة باسلة فحرب رجاله بيوتها وهدموا جامعها الذي كان تحفة فنية اثرية رائعة وقتلوا مئات النساء والاطفال . وقبيل ذلك كان البرتغاليون قد احتلوا ظفار وشيدوا فيها حصنا منيعا واستولوا على الموانئ العمانية القريبة من مسقط مثل قلعات وصور وقريات والمطرح كما استولوا على جزيرة هرمز وانقضوا سنة ١٥٢١ على القطيف والبحرين فاستولوا عليهما وبنوا قلعة في المنامة واخرى في القطيف وبذلك هيمنوا على الخليج العربي هيمنة كاملة طوال القرن السادس عشر (العاشر الهجري) ونصف السابع عشر ومع ان نفوذهم قد تقلص لاستمرار المقاومة ولتدخل العثمانيين الا ان انهيارهم لم يبدأ الا في عهد الامام ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) فهو الذي اخرجهم من الموانئ العمانية الجنوبية وضيق الخناق عليهم في مسقط وأخيرا تمكن اليعاربة في عهد خليفته سيف بن سلطان بن سيف من تحرير مسقط والبحرين في سنة ١٦٥٠م/ ١٠٦٠ هـ وتطهير الخليج وبحر العرب وموانئ الساحل الافريقي كزنجبار ومباسا وكلوه ومقديشيو من آخر الغزاة والقراصنة البرتغاليين^(٨) . لقد طالت مدة العدوان كما يلاحظ فاستغرقت قرنا ونصف القرن . ويجمع المؤرخون من القدماء والمحدثين على

ان سبب انتصار البرتغاليين وبقائهم في صحار وعمان والبحرين هو سوء الاحوال السياسية في عمان واقطار الجزيرة العربية التي انهكها الصراع المستمر على السلطة بين الرؤساء والشيوخ والامراء وانتشار الفتن الدينية والحروب القبلية في اواخر عهد النبهانيين^(٩) وحتى حكم اليعاربة بتولى الامام ناصر بن مرشد (١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م / ١٥٥٠ هـ / ١٦٤٠ م) كما أشرنا . وقد سرد صاحب تحفة الاعيان وقائع النزاع بين النبهانيين والاباضية وتمكن الاباضية من عزل الامام النبهاني وتولية محمد بن اسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م وحكم هذا ثم عزل لسوء سياسته سنة ٩٤٢ / ١٥٣٥ م^(١٠) وفي عهده ظهر البرتغاليون في شرق افريقيا وغزوا عمان واستولوا على ظفار والمطرح ومسقط. وكان الصراع على السلطة والامامة قد اشتد في آخر حكمه ، ثم ازداد شدة في عهد ابنه وخليفته بركات، قال السالمى واصفا ذلك التمزق «ولبث محمد الهنائي في بهلى وآل عمر في سمائل ومالك بن ابي العرب البصرى في الرستاق والجبور في الظاهرة والنصارى (البرتغاليون) في (مسقط) وصحار وجلفار وصور وقريات وخربت عمان بعد العدل والامان وعانت فيها الجبابة وقل فيها العلم والخير»^(١١) . ومما قاله ايضا : «وبقيت عمان كذلك حتى اظهر الله الامام الارشد ناصر بن مرشد رحمه الله فأستفتح جميع عمان ودانت له جميع البلدان وظهرها من البغي والعدوان والكفر والطغيان»^(١٢) . وعن مرحلة عودة النبهانيين الى السلطة خلال

النصف الثاني من القرن العاشر للهجرة قبيل تولى ناصر بن مرشد يقول السالمى «وينصب الائمة في وقت واحد، (ثلاثة أئمة) تشتتت الكلمة وتفرقت الجماعات وضعفت دولة المسلمين ووهت قوتهم، وطمع فيهم من كان لا يطمع فصار الملك متفرقا في ايدي الرؤساء من النبهانية وآل عمير وآل هلال وهم رهط الجبور وصارت الشدة على اهل عمان ولم تبق دولة المسلمين الا في مكان دون مكان»^(١٣) .

وقبل ذلك العهد المضطرب كان العمانيون سادة المحيط الهندي وبحر العرب والخليج^(١٤) وقد لاحظ ذلك المسعودى في القرن الرابع للهجرة^(١٥) وأكد قوة هذه السيادة واستمرارها الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة بعد نحو خمسة قرون^(١٦) ، ولم ينافسهم منافس حتى الغزو البرتغالى لساحل افريقيا الشرقى والساحل العربى الجنوبى الشرقى والخليج العربى في القرن العاشر للهجرة ولهذه السيادة العربية البحرية اهمية كبيرة في تاريخ الحضارة العربية والاسلامية لانها نشرت الاسلام واللغة العربية في شرق افريقية ورفدت اللغة الافريقية بفيض من الالفاظ والمصطلحات العربية وادت الى نشوء ادب عربى فصيح في مناطق زنجبار ومقديشيو ومباسا وغيرها ونقلت كثيرا من عناصر الحضارة العربية الاسلامية الى شرق القارة ووسطها^(١٧) . ولم يوقف الغزو البرتغالى ولا الاستعمار الاوروبى من بعد هذا التأثير العربى العميق فاستمر الى يومنا هذا، وخير دليل على قوته وعمقه ان معجم اللغة السواحيلية ونحوها

وشعرها وأدبها القصصى الشعبى والدينى تؤكد صلات اللغات الافريقية الشرقية وأدبها باللغة العربية وأدبها^(١٨) ولا أرتاب ايضا من ان الغزو البرتغالى كانت له اصداء وآثار فى ادب المقيمين العرب فى حواضر وتغور الساحل الشرقى لافريقيا^(١٩)، وفى الاداب الافريقية الشعبية الاسلامية وغير الاسلامية، ولكن هذه الاداب لم تصل الينا لانها لم تدون لانتقالها من جيل الى آخر بالروايات الشفهية. وقد اكدت الدراسات الحديثة من الادب الصومالى ان معظم الشعر الدينى والصوفى المنظوم بالعربية وبالسواحيلية قد ضاع . والمقصود هنا ما نظم قبل مدة قصيرة فكيف بالشعر الذى قيل قبل قرون؟^(٢٠) .

ان هذه الدلائل التاريخية تؤكد ان ادب الاعصر المتأخرة لم يكن بمعزل عن الاحداث السياسية والحربية على الرغم من ضغوط الحكم الاجنبى وكثرة عوامل التخلف والجمود والعقم . والملاحظ ان مؤرخى الادب العربى المحدثين والمعاصرين لم يهتموا كثيرا بدراسة أدبها فوسموه بشدة الضعف والجمود بصورة مطلقة فوسموا ادب الجزيرة العربية بما وسموا به عموم ادب الفترة المظلمة بل ذهب كثير منهم الى ان الادب فى اقطار الجزيرة العربية كان اشد تخلفا لما كان يسودها من حروب قبلية ونزاعات مذهبية وتأخر ثقافى واجتماعى واقتصادى^(٢١) الخ . وبالف نقر منهم كـ محمد اسعد طلس الذى اعتمد على احكام امين الريحانى وبعض المستشرقين كبروكلمان ونيكلسون وهوار فى تعميم هذه

الاحكام العامة كما فعل اواخر المصنفين كعمر فروخ وحنا الفاخورى ولم ينتبه الى وجه الخطأ فى مثل هذه التعميمات الا بعض مؤرخى الادب كشوقى ضيف الذى اثبت فى كتابه الاخير ان صورة الادب العربى فى الجزيرة اكثر اشراقا مما توحى به اقوال مؤرخى الادب السابقين وان لم يشر الى ذلك صراحة^(٢٢) .

لقد فاتهم ان اقطار الجزيرة قد سلمت من الغزو والاحتلال والاستباحة والخراب التى انزلها المغول بالعراق والشام وفلسطين ، فلم تتعرض اللغة العربية وأدبها فى الجزيرة العربية الى غزولغوى او ثقافى واجتماعى كما حدث فى الشمال صحيح ان ادب الجزيرة قد تأثر بالتيارات والموجات التى اشاعت التخلف والجفاف فى عموم الادب العربى ولكنه استطاع ان يحتفظ بسلامة اللغة بالقياس الى ما طرأ عليها فى العراق والشام فكان الشعر فى اقطار الجزيرة اكثر نشاطا وحيوية من شعر الشمال العربى بصرف النظر عن انجرافه بموجة التصنع البديعى التى كانت مسيطرة على أدب العصور المتأخرة فى كل مكان وعن ابتلاء اقطار الجزيرة العربية بسموم التفارقة وشروط التمزق والانقسام الى امارات ومشيخات صغيرة عانت شر التنازع من اجل الرئاسة والامارة والمشيخة والاحقاد التى تضررها العصبية القبلية وكان الشعر فى العراق والشام قد خدمت جذوته منذ سقوط الخلافة فى القرن السابع وزوال الحكم العربى واستيلاء المغول والفرس والترك وغيرهم من الاعاجم على السلطان والمال والجاه. ولم يسلم الشعر فى مصر ايضا من هذا الجمود فى عهد المماليك على الرغم من

احترامهم للعربية وادابها لانهم اعاجم ولاسباب اخرى يطول شرحها. وكان من الطبيعي والاحوال كما نرى ان يحتفظ الادب والشعر في جزيرة العرب بكثير من خصائص الشعر والنثر وتقاليدهما التي اختفت او كادت تختفي من الشمال العربي. فشعر الحرب والحماسة والفخر بقى حيا مرغوبا فيه وان تخلف وراء الشعر القديم لان الحروب والنزاعات المستمرة في اقطار الجزيرة بين الامراء والشيوخ والقبائل كانت تثريه وتغذيه وقديما قال الاصمعي ان طريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة (الذبياني) من صفات الديار والغزل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فاذا ادخلته في باب الخير^(٢٣) وشعر المديح في اقطار جزيرة العرب لم ينكمش كما انكمش في شمالها للاسباب المذكورة ولان المدوحين عرب اقحاح يطربون للمديح ويتذوقونه ويفيدون منه على الصعيدين الاجتماعي والسياسي ويجزلون العطاء للشعراء في حين ان شعراء العراق والشام ومصر كانوا بعد زوال الحكم العربي وسيادة الاعاجم لا يجدون اميرا عربيا يفهم المديح ويشيهم عليه ولا بطلا قوميا عربيا يشيدون ببطلته ولا اعالى إذا زعمت اننا لا نجد في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في العراق والشام ومصر شعراء افضل من كبار شعراء عمان والبحرين واليمن . لقد كان الصفويون الفرس يحتلون معظم العراق، والبلاد خراب يباب، والحياة الثقافية والعلمية راكدة، والناس في كرب وهلع، ولم يلبث العثمانيون الاتراك ان هاجموا العراق سنة ٩٣٥ بعد ان استولوا على الشام ومصر

وقتلوا الغوري آخر المماليك^(٢٤) وكان قانصوه الغوري قد ارسل قوة بحرية لتساعد عدن وامير مالابار الهندية في صد البرتغاليين فدمرها هؤلاء^(٢٥) . وثمة فوارق اخرى بين ادب شبه الجزيرة العربية وادب شمالها لا مجال لشرحها هنا ، مثل النهج التقليدي والطابع البدوي، وتقلص شعر المجون وقلته وانتشار شعراء الزهد والتصوف والمذائح النبوية ومذائح آل البيت واتسام هذا الشعر بالحرص على تجنب ما يبلبل العقيدة ويثير الشك والالحاد في حين ان شعر التصوف في العراق والشام وغيرهما لم يتقيد بمثل هذا الحرص والحذر. ومن الخصائص ايضا استمرار وصف الصحراء وحياتها في شعر الاعراب ومقلديهم ووصف البحر والسفن والمعارك الحربية البحرية والمدن الساحلية ولاسيما الموانئ الافريقية الجميلة كزنجبار وممباسا وكلوه كما في شعر الحضارمة والعمانيين المارين والمقيمين ... الخ ومهما كان فالذي يهنا هنا ان الشعر (كان على كل لسان على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف في عرضه القيم الممتع للحياة الادبية في الجزيرة العربية)^(٢٦) . وقد راج شعر الحرب والحماسة والفخر والمديح وبعض الاغراض التي تتسم بالاحداث الحربية والسياسية لان الحياة في اقطار الخليج كانت توفر لها الحوافز والدوافع والظروف الملائمة فتوثب في قصائدها واشعارها صور الغزوات والمعارك والحروب الداخلية والخارجية. وكان العدوان البرتغالي اشد هذه الحروب وبالا واطولها عمرا في تاريخ الجزيرة العربية فترددت اصداؤه في شعر عمان وحضرموت والبحرين وفي نثرها الادبي والتاريخي،

وتفاوتت تأثيرات تلك الاصداء واختلفت قوة وضعفا باختلاف الظروف الحربية والسياسية والنفسية التي احاطت بأحداث ذلك الغزو الاستعماري الذي دام قرنا ونصف القرن .

وهنا يجب ان نؤكد ان متابعة تلك الاصداء والصور في دراسة كهذه لا تلتزم مطلقا بالالتزام بالمعايير النقدية الخاصة بالادب الرفيع ولا تهملها كل الاهمال لان الاهتمام هنا ينصب على الجانب التاريخي ومع هذا فان مؤرخ الادب لا يستطيع ان يتخلى عما يميز الدراسة الادبية التاريخية عن البحث التاريخي الصرف. ويحسن ان نعترف ايضا ان موضوعنا هذا وما يماثله من موضوعات لا تحظى عادة بأهتمام خاص لان حدثا تاريخيا كالغزو البرتغالي يتحرك حول محور واحد من محاور الادب ويدور حول موضوع رئيسي كبير تلقف حوله عدد من الموضوعات الثانوية ولا تجد لها أثرا الا في اغراض شعرية معينة كشعر الحرب والحماسة والفخر والمديح وبعض انواع الوصف. لذا يندر ان نجد مؤرخا او باحثا يحصر اهتمامه في موضوع كهذا ولا يتعداه لغيره الا اذا كانت هناك مناسبة كمناسبة إعداد هذا البحث التي خصصت لفترة الغزو البرتغالي فلولها لما خطر ببالي ان اجازف لتصيد اصداء الغزو البرتغالي في الشعر والنثر . لقد خيل لي من بادى الامر انني كالراكض وراء السراب. زد على هذا ان تاريخ ادب الجزيرة العربية وتاريخها السياسي والاجتماعي ما زالوا محتاجين الى دراسات كثيرة وابحاث مفصلة عديدة واذا كانت الحياة الادبية في اليمن قد نالت قسطا من العناية في السنوات الاخيرة فان اقطارا

اخرى كعمان والامارات وحضرموت لم تحظ الا بدراسات قليلة تعد على الاصابع. والحق ان حظ المؤرخ افضل بكثير من حظ الاديب لوفرة الدراسات التاريخية الحديثة التي قام بها المستشرقون والعرب والمصادر التاريخية الاولية المطبوعة والمخطوطة لذا كانت الشكوى من غياب المصادر الادبية وقلة الدراسات الحديثة تتكرر في كل دراسة ادبية حول الادب وفنونه في اقطار الجزيرة العربية فمعظم دواوين الشعر قد فقدت والقليل الذي سلم من الضياع مازال مخطوطا محتجبا في اماكن يتعذر الوصول اليها وكتب التراجم المعنية بالشعراء والادباء ليس لها وجود. والمتأخر منها كخلاصة الاثر للمحبي وريحانة الالباء للخفاجي والسلافة لابن معصوم ونفحة الريحانة للخفاجي ايضا ونشوة السلافة لمحمد علي بشارة وامثالها قلما تعنى أو تهتم بشعراء وادباء عمان وحضرموت واليمن فإن صادف وجود تراجم لبعض رجالها المشهورين فهي موجزة إيجازا مخلا يجرح الباحث ويزعجه^(٢٧) . كانت عمان كما يعرف المؤرخون القطري العربي الذي نكب بالغزو البرتغالي مدة قرن ونصف فقد احتل الغزاة اكبر ثغورها وفتكوا بأهلها واشاعوا فيها الخراب، وقد تعرضت البحرين والقطيف للعدوان والاحتلال ايضا مدة طويلة ومع هذا فلانجد شيئا فيما كتبه شعراؤهما يرضى الباحث عن اثر الغزو البرتغالي في الشعر والنثر . اما عمان فأهم دراسة عن شعرها للدكتور علي عبد الخالق^(٢٨) ليس فيها الا بعض الاشارات والنصوص لمستشهديها قليلة وقد سبق ان انتبه الى بعضها الدكتور شوقي ضيف وبعض المؤرخين^(٢٩) . وكانت

حضر موت قد اصبحت هي ايضا بويلات الغزو البرتغالي وان لم يحتل البرتغاليون موانئها وسواحلها وانما اكتفوا بالاغارة عليها وباعمال القرصنة في مياهها مرات عديدة خلال المرحلة الاولى من غزوهم على الاخص . ومع هذا لا نجد شيئاً فيما عرفنا من شعرها ونثرها الادبي والتاريخي . فكتاب السقاف تاريخ الشعراء الحضرميين وهو كبير في ثلاثة اجزاء او جز فيها المؤلف نحو مائة وعشرين ترجمة لشعراء حضارمة عاش منهم عشرات خلال القرنين الهجريين العاشر والحادي عشر للهجرة (فترة الغزو البرتغالي) لا نجد فيه نصا شعريا او نثريا واحدا ينعكس عليه ظل حدث صغير او كبير من احداث الغارات البرتغالية المتعاقبة على سواحل حضرموت وجزرها وسفنها^(٣٠) وقد احتل البرتغاليون القطيف كما ذكرنا وبنوا فيها حصنا ولكننا لا نجد في كتاب شعراء القطيف للشيخ علي المرهون اية اشارة او نص يتردد فيه صدى ضعيف من اصدااء العدوان البرتغالي الذي دام اكثر من قرن^(٣١) ونصطدم بالعقبة نفسها اذا اتجهنا الى أدب البحرين التي احتلها البرتغاليون واقاموا فيها قلعتين طوال مدة وجودهم في الخليج العربي . ولا نستطيع التثبت بعدم وجود اثر لهذا الغزو في ادب البحرين ولعلنا واجدون اذا توفرت لدينا بعض المصادر . تلك اذن هي العقبة الكأداء اعنى مشكلة قلة المصادر للدراسات الخاصة باقطار الخليج والجزيرة العربية ولو لا فضل نفر قليل من المؤرخين واهتماماتهم الادبية وكثرة النصوص الشعرية والنثرية التي ذكروها ، اقول لو لا هؤلاء الافاضل كالازكوى والسالمى وابن رزيق والمعبرى من القدماء

وشوموفسكى واستاذة كرانشفوفسكى ووندل فيليبس وفران وغيرهم لما استطعنا ان نضيف شيئاً الى الاشارات الخاطفة والوقفات القصيرة التي وجدناها في بعض الدراسات الادبية والتاريخية^(٣٢) .

واقدم اشارة ادبية الى البرتغاليين وردت في احدى الارجيز الثلاث المنسوبة للملاح العربي الذائع الصيت شهاب الدين بن ماجد التي اكتشفها المستشرق الروسى كرانشفوفسكى بعد الحرب العالمية الاولى^(٣٣) ثم قام بتحقيقها ودراستها بعد ذلك تلميذه تيودور شوموفسكى ونشرها بعنوان : ثلاثة ازهار في معرفة البحار في ليننغراد سنة ١٩٥٧^(٣٤) وهى كما لاحظ كرانشفوفسكى غير الارجيز الشهيرة المسماة بالحاوية الموجودة في كتاب (الفوائد في اصول علم البحر والقواعد) الذى قام المستشرق الفرنسى جبريل فران بدراسته والكتابة عنه ثم نشره في باريس سنة ١٩٢٢^(٣٥) .

يقول الاستاذ الروسى شوموفسكى في دراسته (والترجمة العربية لمحمد منير مرسى ناشر الكتاب) : والجزء الثانى من الارجوزة الاولى حفل بالاشارات المتكررة (الى) الفرنجة (البرتغاليين) .. ويتكرر اسمهم (بقصد الاشارة اليهم) اربع عشرة مرة^(٣٦) ويقول : وفي الاخبارات (هكذا جمعها) عن رحلات الفرنجة الذين وصلوا الى الحبشة واخذوا معلومات وصفية من كل قادم من الهند . ومن هذه الانباء عظمة واتزان فكر الانسان ولكن يتغير هذا الفكر لدى ابن ماجد ، شاهد العيان لوقائع الاستعمار البرتغالي بنظامه الدخيل على المحيط الهندى الذى اساء الى الملاحة العربية فيجد انه من

المصادر التي بنيت عليها دراسة فاسكو دي جاما وابن ماجد. وهناك في نهاية كل من الارجيز الثلاث يرد لحن خاص يكمل الصورة العامة للمزاج الفكري عند المؤلف (الناظم) فهناك الشكوى من هبوط روجه المعنوية التي يفسرها على ما يبدو بضعف التأثير الاسلامي في الخارج^(٢٨) وأشار ابن ماجد الى البرتغاليين وملاحظات محققها المذكورة اثارت اهتمام المستشرق الروسي الاستاذ اولد وروجي الذي كتب لها مقدمة يقول فيها بعد ان ذكر اربعة ابيات منها اولها (وجالكاليكوت) :

«وكان قدر ابن ماجد تراجيديا، فقد كان شاهدا على ما قام به البرتغاليون من افناء للسلطين العرب في شرق افريقيا وتدعيم قبضتهم على لبنة الاستعباد الاستعماري لشعوب جنوب آسيا. ومنذ ذلك الحين مرت ٤٥٠ عاما كانت لشعوب الشرق فترة ظلم واستعباد ... الخ^(٢٩) وادرك شوقي ضيف اهمية رجز ابن ماجد التاريخية الادبية. تاريخ الجزيرة العربية وادبها واهمية ملاحظات شوموفسكي واولد روجي فقال وهو يتحدث عن الملاحة العربية وعن ابن ماجد :

«ومن سوء طالع هذا العالم العربي الفذ في علم الملاحة البحرية وهو على وشك ان يختم حياته وقد بلغ سبعين عاما ونيفا ان تعرف عليه في (مالندى) بشرقي افريقيا فاسكو دي جاما البرتغالي وكان قد يئس من الوصول الى الهند عن طريق البحر اذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحري اليها، وكانت سفنهم كلها خرجت في المحيط الهندي واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها احد. ونعجب ان نرى ابن

الضروري ان يعبر فنيا عن احساسه التائر فيقول عن المستعمر البرتغالي :

وجالكاليكوت خذ ذى الفائدة لعام تسعماية وست زائدة وباع فيها واشترى وحكما والسامري (برطله) وظلما وسار فيها مبغض الاسلام والناس في خوف (وفي) اهتمام وانقطع المكس عن ارض السامري وشد جردفون للمسافر (وخبرني) ما حمله الفرنجي من جانب السودان شط اللجى وهو الذى قد قهر المخاربة واندلس في حكمة مناسبة^(٣٧) ويمضى شوموفسكي قائلا :

«وبعد فترة قصيرة يعود المؤلف (يعنى ابن ماجد) الى احداث عام ١٥٠٠ - ١٥٠١ م : (ص ٩٤ أس ١٦ - ٢٠) :

وبعد ذا من عام تسعماية وست جاءوا الهند ياأخايه واشتروا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر ركنوا والناس تضرب فيهم الظنونا ذا حاكم او سارق مجنونا وتضرب السكة وسط البندر

بندر كاليكوت بين السفر ياليت شعري ما يكون منهم

والناس معجبين من امرهم ويرى المستشرق ان في ابيات الارجيز نبرات ندم فيقول بعد هذه الابيات : وبهذا الندم المرير لملاح فاسكو دي جاما والتاريخ الذى يشير اليه شهادة ذات اهمية تاريخية ادبية من الدرجة الاولى. ولا يوجد حتى الان اى مصدر اخر يتضمن هذه المعلومات من

ماجد يتحول له مرشدا يهديه الطريق في سنة ٩٠٦ للهجرة الى كلكتا في الهند. وبذلك يكون - لغفلته - اداة للاستعمار البغيض. البرتغالي اولا، ثم الانجليزي والفرنسي والهولندي من شاطئ افريقيا الشرقى الى جزر الهند الشرقية وبحر الصين. وسرعان ما شعر بسوء فعله فصور ذلك مرارا في ألم ومرارة عن فاسكودى جاما واصحابه البرتغاليين في الارجوزة الاولى من «ثلاث ازهار في معرفة البحار» .

وجالكاليكوت خذ ذى الفائدة لعام تسعماية وست زائدة وسار فيها مبغض الاسلام والناس في خوف وفي اهتمام واشتروا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر ركنوا

وهو يريد - الكلام لشوقى ضيف - بالسوامر البرتغاليين نسبة الى السامرى الذى صنع العجل وعبيده بنواسرائيل ، يريد انهم كفار . ومع ذلك صاحبهم حاكم ثغر كاليكوت في الهند. وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد قوات الآوان . ومع أنه أكثر من الارجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضا يختل الوزن عنده أحيانا (٤٠) .

وتفسير شوقى ضيف لمعنى لفظة (السوامر) لا وجه له هنا فالسوامر هم رهط السامرى حاكم كاليكوت كما ذكر زين الدين المعبرى في (تحفة المجاهدين) وابن رزيق والسالى وغيرهم من المؤرخين . وقد عاصر المعبرى تفاصيل الفظائع التى ارتكبها البرتغاليون وصب بعض غضبه وسخطه على السامرى والسامريين بأسلوب يتسم بالآلم والمرارة التى لاحظناها فى رجز ابن ماجد .

ان القيمة الفنية والأدبية لمنظومات ابن ماجد ضئيلة لافتقار الشعر التعليمى كله الى عناصر الفن والجمال إلا أن هذه القيمة الضئيلة لا تنفى أنها أثر منظوم من آثار الأدب عكس مشاعر عالم كبير وأديب شاعر عبر تعبيراً صادقاً عما تركه الغزو البرتغالى فى نفسه ونفوس العرب والمسلمين من أبناء عصره . ولا يفوتنا أن ابن ماجد ينظم للربابنة والملاحين وهم صنف لا يلم بأصول الثقافة الأدبية واللغوية المأم طلاب علوم اللغة والنحو والفقه والكلام وسائر الذين اعتادوا أن ينظم لهم شيوخهم اراجيز الشعر التعليمى . ثم أن اراجيز ابن ماجد بمثابة دليل بحرى ملاحى علمى جغرافى للرحلات عبر البحار والمحيطات فهو اذن ضرب من النظم يتيح للناظم فرصا للتصوير والتلوين والتنويع والتطرق الى بعض الأحداث ووصف أحوال البحار والجزائر على الرغم من الصعوبات العديدة التى تعترض النظم فى هذا النوع الفريد النادر من الشعر التعليمى لأن كثرة الأسماء الغربية للجزائر والبحار والسواحل والمدن والأقوام اضافة الى ما تنطوى عليه علوم الملاحة من المصطلحات العلمية والأسماء الأعجمية والمعربة والمحرفة والعامة تضطر الناظم الى اثقال النحو المنظوم واريابك وزنه بالعلل والزخارف والألفاظ والعبارات الخارجة على قواعد اللغة والنحو والصرف ومع هذا كله فان هذه المساوئ والهئات قليلة بالقياس الى ما ذكرناه من خصائص هذا الضرب من النظم ومشكلاته .

وإذا تركنا ابن ماجد وارجيزه فلا نكاد نجد فى آثار القرن العاشر الأدبية ما يدل على تأثر الشعراء والكتاب والأدباء بأحداث

الغزو البرتغالي وهو في مرحلته الأولى .
 أيكون هذا خطأ سببه قلة مصادرنا وضياح
 الأشعار ودواين الشعر والنثر ؟ أو أن
 الهزائم التي أنزلها البرتغاليون بالعرب من
 العمانيين والحضارمة وأبناء الخليج والهنود
 المسلمين وبالأسطول المصرى والعثمانى قد
 شلت المواهب وأخرست الألسن فسكتت
 وكأنها تنتظر نصرا كبيرا على الغزاة ينفس
 عن مشاعر الغيظ المكتوم ويطلق السنة
 الشعراء والأدباء من حبوسها ؟ وهل كان
 سبب هذا السكوت الصراعات العنيفة على
 السلطة والحروب الداخلية المستمرة في
 عمان وحضرموت وأقطار الخليج العربى من
 شيوخ القبائل والأمراء وهى حروب
 استهلكت طاقات الشعراء ومواهبهم
 وشغلتهم كما شغلت الزعماء المتنازعين
 هجمات البرتغاليين المتوالية ونجاحهم في
 احتلال صحار وجلفار وقريات وهرمز
 والبحرين والقطيف والصعود حتى جده
 ومحاولة غزوها وقطع الطريق على السفن
 العربية في المحيط الهندى ومنعها من
 الوصول الى شرقى افريقيا والهند وارتكابهم
 أبشع جرائم القرصنة في البحر والحرث
 والنهب والتدمير واسترقاق الأسرى والسبى
 في البر ثم قيامهم زيادة على هذا بالتدخل بين
 المتنازعين في عمان وظفار ومساعدة بعضهم
 وتحريضه على الآخرين للتخلص منهم
 جميعا . وهل كان السبب ضعف العرب
 والمسلمين في ذلك العصر نتيجة التفرق
 والتمزق وسقوط الدول العربية الكبرى وغير
 ذلك مما يطول ذكره ؟ مهما كانت أسباب
 سكوت الشعراء والأدباء ازاء الغزو
 البرتغالى فما على الباحث إلا تسجيل هذا
 السكوت والمضى في البحث والتتقيب أملا في

العثور على ما يغير الصورة أو يصححها .
 ففى سنة ١٤٩٧/٩٠٥م - وصل فاسكودى
 جاما الى شرقى افريقيا ثم عبر الى الهند وعاد
 فى سنة ١٥٠٠م - عاد بأسطول أكبر الى
 المنطقة وانتزع السيادة على المحيط الهندى
 من العمانيين ثم غزا النبهانى آخر أمراء بنى
 نيهان . وقد عزله العمانيون فى تلك السنة
 نفسها بعد ثورة الإياضية وأنصارهم فهرب
 الى هرمز وعاش حتى سنة
 ٩١٥هـ/١٥١٠ . أترى أن هذه الحروب
 الداخلية قد شغلته عن إدراك خطر الغزو
 البرتغالى ؟ أو أن أحداثه المبكرة جرت فى
 شرق افريقيا والهند بعيدا عن عمان ؟ ولكن
 الوقائع التالية من تاريخ عزل الأمير النبهانى
 سنة ٩٠٦هـ وفرااره ووفاته سنة ٩١٥ دارت
 على سواحل عمان نفسها ، فقد احتل
 البرتغاليون صحار وقريات وقلعات قبل
 وفاته . ولكن الذين رووا بعض أخباره
 وأشعاره ونشروا ديوانه فى عصرنا هذا لم
 يشيروا الى أى أثر من آثار الغزو البرتغالى فى
 شعره . ولم أعثر على نسخة من الديوان فى
 بغداد كى أتأكد من خلوه من أية اشارة الى
 البرتغاليين وهو ما أرجحه لأن الأمير الشاعر
 كان منشغلا بالدفاع عن عرشه وحياته
 وما جلب له عزله وفرااره من هموم وصدمات
 نفسية أبعدته عن مسرح الأحداث . وكان
 النبهانى أكبر شعراء عمان فى عصره وشعره
 كما يقول شوقى ضيف «يفيض بثقافة لغوية
 وأدبية جيدة وهى ثقافة تتضح بجلاء فى
 معارضاته الكثيرة للشعراء . ولكن من الحق
 أنه مع هذه المعارضات الكثيرة فى ديوانه
 واغاراته على معانى الأسلاف واخيلتهم
 وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رصف الكلم
 والموضوع الأساسى فى ديوانه هو الفخر وهو

جديدا . وكان البرتغاليون قد احكموا سيطرتهم على ثغور عمان وتحصنوا في مسقط والبحرين والقطيف وهيمنوا على الخليج العربي هيمنة تامة وفرضوا سيادتهم على ساحل الهند الغربى الشمالى وعلى كلكتا وعلى الثغور المهمة من ساحل افريقيا الشرقى والقرن الافريقى وجعلوا المحيط الهندى تحت قبضتهم البحرية . وبأمانة ناصر بن مرشد ابتدأت مرحلة تحول حاسم في تاريخ عمان والخليج العربى والمحيط الهندى فقد وحد الصفوف بقوة وحزم وحنكة سياسية وقضى على الفتن والمغامرات والأطماع وجعل من عمان دولة قوية وسجل بداية النهاية لمأساة الغزو البرتغالى عندما دحر البرتغاليين عدة مرات واسترجع منهم معظم الثغور العمانية جنوب مسقط وحاصروهم وضيق الخناق عليهم في مسقط التى اصبحت آخر المعاقل الحصينة التى اهتموا بها .

والذى يعنينا هنا أن المصادر التى بين أيدينا لا تقدم لنا نصوصها الشعرية أثرا أو صدى من أصداء الغزو البرتغالى في أدب عمان والخليج بين أوائل القرن العاشر وأواسط القرن الحادى عشر للهجرة . لقد انجبت عمان وأقطار الخليج عشرات الشعراء والأدباء فالشعر كان وما زال فيها هو الفن المفضل على فنون الأدب بدليل أن أسماء شعرية عديدة تتردد في المصادر التاريخية مع نماذج أو شواهد من شعر الحماسة والفخر والمديح الذى قيل في أثناء النزاعات والحروب المتوالية بين الأمراء أو بين شيوخ القبائل الكبيرة ، وليس من المعقول أن تتعاقب أحداث الغزو البرتغالى وتمر على اغتصابهم الثغور العمانية السنين

شئ طبيعى إذ كان سلطانا وصاحب دولة ... الخ»^(٤١) وينصب اهتمام النبهانى أيضا على الغزل ووصف مجالس الشرب واللهو ، ويقول على عبد الخالق عن شعر النبهانى انه «تعبير عن ملذاته ونمط حياته وهى ذاتية ملك شاعر ، تماما كما كان الشأن في امرئ القيس الملك الضليل ، فالنبهانى هو الملك العربى وقد دفعه الى ذلك حياة الترف واللهو والغنى ... الخ» ثم يبالغ على عبد الخالق حين يعقب : «وشعر النبهانى أصدق مثال للغزل الفاضح واللهو والمجون ..»^(٤٢) فإذا وصفنا غزل النبهانى الممعن في التقليد والنسج على منوال الجاهليين والاسلاميين بالعريضة والمجون فماذا نقول عن غزل ابى نواس وأضرابه ومن لف لفهم ؟ وفصل المقال عن النبهانى وشعره أن ظروف حياته وسلطته التى عصفت بها الأحوال السياسية الداخلية ، وابتداء الغزو البرتغالى في شرقى افريقية سنة ٩٠٦هـ هى السنة التى خلع فيها ووصول البرتغاليين الى عمان بعد خلع بوقت قصير ثم وفاته عام ٩١٥هـ قبيل سقوط مسقط بأيديهم كل ذلك حال دون تأثيره وتأثر شعره بوقائع الغزو البرتغالى ونتائجه المدمرة . ولم تتحسن الأحوال السياسية في عمان خلال امامة محمد بن اسماعيل الخروصى (٩٠٦ - ٩٤٢هـ) بل ازدادت سوءا وتمزقا في آخر سنى حكمه وخلال حكم خلفه بركات بن اسماعيل وبقيت في أسوأ حال حتى عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م عندما بايع العمانيون ناصر بن مرشد اليعربى الازدى وبولايته انتهى عهد بنى نبهان الاخير وأسست دولة اليعاربة التى أعادت اليها الوحدة والقوة وبعثتها بعثا

دون أن يسمع صدى من الأصداء في شعر شاعر أو ناثر أديب . والرأى الراجح أن ضياع دواوين الشعر والمصنفات هو الذى حرمانا من العثور على نصوص نجد فيها بغيتنا . ولعل اكتشاف ما فقد أو بعضه ونشره فى المستقبل كفىل بإزاحة الظلام المخيم على الحياة الأدبية خلال فترة الغزو التى استغرقت القرن العاشر والحادى عشر ومحت من تاريخ عمان العصر التاريخى والأدبى الممتد بيت آخر عهد النبهانين وأواسط عهد اليعربيين . فالملاحظ أن الحياة الأدبية قد نشطت وأن الشعر قد انتعش بعد انتقال الحكم الى اليعاربة ونجاحهم فى بعث عمان القوية من جديد وتسنى للشعراء أن يتغنوا بأمجاد ناصر بن مرشد وأحلافه وانتصاراتهم على الغزاة البرتغاليين وفى هذا يقول الدكتور علي عبد الخالق: «كان قيام الدولة اليعربية (١٦٢٢ - ١٧٤١م) مدفوعا بأسس دينية ، وبدأ منذ نشأتها دورها البارز فى طرد البرتغاليين من منطقة الخليج العربى وشرق افريقية الى جانب صراع المواجهة المنتظر مع الفرس جهة الشرق . ووضحت القوة الحربية لهذه الدولة ، كما أصبح اسطولها يسيطر سيطرة شبه كاملة على طريق التجارة الى الهند . ومع هذه النهضة الحربية فاننا سنكتشف أن الحياة الأدبية فيها بقيت تسير على نمط الشعر فى عهد بنى نبهان (٥٤٩ - ٨٠٩هـ / ١١٥٤ - ١٤٠٦) رغم أن كثيرا من الأئمة كانوا يتذوقون الشعر كما ورد عن الامام يعرب بن سلطان اليعربى قوله : ولما رأيت الناس لم أر صاحباً أخاتقة فى النائبات العظام وأبصرت فيهم من رخاء وشدة

فلم أر منهم غير كسب الدراهم أما شعراء هذا العصر فمن جملتهم خلف بن سنان الغافرى، ومحمد بن مسعود الصارمى، وعلى بن ناصر الريامى والمحروقى والحبس . وهؤلاء قالوا الشعر فى مدح أئمة اليعاربة وذكر انتصاراتهم فى الخليج والهند وشرق افريقية (٤٣) . ونحن لا يهمننا كثيرا فى هذه الدراسة ما قيل عن القيم الفنية والجمالية لشعر هذا العهد من خلال موازنته بشعر العهد النبهانى والعهد العباسى، ولا يصح ايضا الحكم عليه وفق معايير النقد الحديث والذوق الادبى والنقدى المعاصر وهذا ما يلاحظ على اقوال صاحب (الشعر العمانى) وأحكامه . انما الذى يعيننا ويشغلنا حقا ان الحملات التى شنّها اليعاربة على البرتغاليين المعتدين والانتصارات التى احرزوها ونجاحهم فى طرد الغزاة من ثغور الخليج والبحر العربى ومن موانئ الساحل الافريقى الشرقى قد انعكست صور منها فى شعر الشعراء وفى النثر الديوانى الرسمى والنثر التاريخى . صحيح ان هذه الصور والاصداء ليست كثيرة او انها لا تتناسب مع الانتصارات الحربية وان قيمتها الفنية لم تصل الى المستوى الذى وصل اليه الشعر العربى فى عهود الازدهار والتفوق الماضى الا انها ذات اهمية كبيرة إذا قيست بظروف العصور المتأخرة السياسية والحربية والأدبية والفنية . ولو وصلتنا دواوين شعراء العصر اليعربى لتوفر لنا شواهد اكثر مما رواه ابن رزيق والسالمى والمصادر التاريخية والغريب

أننا لا نجد في شعر العهد العربي قصائد او مقطوعات تشيد بإيمان الامام ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة وتتغنى بانتصاراته على البرتغاليين الا ان الادب الدينى والقصص والشعبى يحفل باقاصيص واخبار اشبه بالاساطير والحكايات التى ينسجها المثل الشعبى حول كبار الابطال. ولعل الشعر الذى قاله الشعراء فى مدحه فقد اولم يصل الى الرواة الذين اعتمد عليهم ابن رزيق والسالمى وغيرهما او ان هذا الامام اليعربى الزاهد المقتدى بالرسول (ص) والصحابه الابرار لم يكن يثيب الشعراء او يجزل لهم العطاء شأنه شأن اغلب مؤسسى الدول الكبار لذلك وجدنا كل الاشعار التى تغنت بانتصارات العمانيين وصورت هزائم البرتغاليين موجهة لخلفاء ناصر بن مرشد ولا سيما خلفه وابن عمه سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) « الذى شمر وجاهد ونصب الحرب لمن بقى من النصارى (البرتغاليين) بمسكه (مسقط) وسار عليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وفتحها، ولم يزل يجاهددهم فى بر وبحر فأستفتح من بلدانهم وخرّب كثيرا من مراكبهم وغنم كثيرا من أموالهم » (٤٤) كما تغنى الشعراء بامجاد ابنه وخليفته بلعرب بن سلطان ثم خلفه سيف بن سلطان الملقب (قيد الارض) الذى : « حارب النصارى فى كل الاقطار واخرجهم من ديارهم وابتزهم من قراهم. وأخذ منهم بندر ممباسه » والجزيرة الخضراء (زنجبار) وكلوة وبث وغيرهن من البلدان من ناحية الزنج بأرض السواحل (٤٥) وكان والده سلطان كما يقول

وندل فيليبس : « قد وجه اهتمامه خلال حكمه ايضا الى افريقيه فطرد البرتغاليين من كل الموانى شمال قناة موزمبيق، وجعل من عمان العامل الحاسم فى شئون شرق افريقيا » (٤٦) ويذكر المؤرخون انه قام بذلك مستجيبا لاستنجاد وفد من كبار رجال ممباسه ناشدوه انقاذهم من نير البرتغاليين وجرائمهم الوحشية، فقامت السفن العمانية بالغارة على زنجبار واستولت على المستوطنات البرتغالية فيها فاعلنت زنجبار ولاءها لسلطان عمان (٤٧) ولا ريب فى ان هذه الانتصارات المجيدة قد ألهمت حماسه الشعراء فترنموا فى مدائحهم لهؤلاء الائمة السلاطين. ولا ريب ايضا فى ان تحسن الاحوال المالية بفضل هذه الانتصارات قد اتاح لهم ان أجزلوا العطاء للشعراء فافاضوا فى مدحهم والاشادة بامجادهم الحربية. وكان الشاعر خلف بن سنان الغافرى اول من لفت انظار مؤرخى الادب الذين انتهوا الى الغزو البرتغالى وبعض اصدائه فى الشعر العمانى. وكان ابن سنان احد قضاة الامام سلطان بن سيف اليعربى وكان عالما فقيها محبا للادب يحسن قرض الشعر على طريقة الفقهاء المهتمين بالتأريخ وقد نظم قصائد طويلة فذكر السالمى فى تحفة الاعيان ثلاثة واربعين بيتا من احداها وقد لفتت بعض ابياتها التى ذكرت البرتغاليين واشادت بانتصارات الامام سلطان عليهم أنظار بعض المؤرخين العرب المهتمين بتاريخ الخليج كالاستاذ سليم طه التكريتى فذكر ثلاثة ابيات منها فى فصل تأريخى خصصه للغزو البرتغالى (٤٨).

ولفت هذا الموضوع نفسه انظار مؤرخ
الادب الكبير الدكتور شوقي ضيف فقال :
وهو يتحدث عن شعراء الخوارج في الجزيرة
العربية : « وتعود عمان الى النبهانيين فترة
من القرن العاشر، ثم يستولى عليها نهائيا
ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠هـ) وتظل
منذ هذا التاريخ في ايدي الخوارج. وكان
البرتغاليون قد نزلوا في شواطئها، فأخذ
ينازلهم وظلت مدينتا صحار ومسقط في
ايديهم، واستطاع خلفه سلطان بن سيف
اليعربي (١٠٥٠ - ١٠٩١هـ) ان يطردهم
من البلاد نهائيا وتبعهم اسطوله ينكل بهم
وباسطولهم في شرقي افريقية وغربي الهند.
وفي ذلك يقول شاعره خلف بن سنان
الغافري ممجداً :

ثم أوري لمسقط سقط عزم
اسقط الظالمين منه ضرام
وغدت من عمان كف بني الأص
فر صفرا قد هزها الانهزام
وبمباسة اذاقهم بأسابئ
سا سيئت به الاصنام
ولدى زنجبار زمجر فيهم
وعد زجر لم ينج منه اعتصام
وببمباني نالهم منه نات
لم يشبه عن المضي انهزام
وهو يشير الى انتصارات اسطول سلطان
على الاسطول البرتغالي في ممباسة وزنجبار
وبمبى بالهند وهي انتصارات جديدة بكل
تمجيد واشادة (٤٩) وليس هذا كل ما جاء في
هذه القصيدة الطويلة عن انتصارات
سلطان بن سيف على البرتغاليين. فمنها
ايضا :

وفدوا (مسقطا) وعدة بلد
ان عليها ومع القسوس سجام
وقوله يصف رعب البرتغاليين :
أبهم العقل عنهم فاتاهم
عنوة ما اصفرت به الابهام
همهمتهم فيهم رعود حتوف
من همام في ملكه مهمام
وسباهم ألفى أسير كأن قد
مازج الدمع منهم العلام
واقنتى منهم كنوزا غدا يب
هر منها قارون بل بهرام
وعن استيلاء العمانيين على حصنين في
مسقط هما الجلالى والميرانى يقول ابن
سنان :

ماد عن أرضها كفيتا ومور
بعد شهد له المزار طعام (٥٠)
وتجلى عنها جلال
قلله علينا الا جلال والاعظام

وواضح ان هذا الشعر بعيد جدا عن
الذى وصل اليه شعر الحماسة في العصرين
الجاهلي والاسلامى وفي العصر العباسى
وخاصة في شعر ابي تمام والمقتبى وأبى
فراس الحمدانى وليس هذا بغريب فقد غلب
الضعف على الشعر العربى بوجه عام في هذا
العصر، اننا ازاء شعر نظم في القرن العاشر
للهجرة وهو من اشد عصورنا الادبية ظلاما
وهو ظلام يقطع أنفاس الشعراء بل يخنقهم
خنقا. ولعل عمان هى المكان الوحيد في
الوطن العربى الذى نجد فيه شعراء يتغنون
بانتصارات عربية خالصة .
وقد امتدح شاعر آخر هو محمد بن

مسعود الصارمى سلطان بن سيف اليعربى
بقصيدة طويلة وصف فيها هجومه على
(بته) التى كان البرتغاليون يتحصنون
فيها وهنأه بالنصر مفتخرا بشجاعته وحسن
قيادته وفتكه بالبرتغاليين واسترجاعه
الحصن منهم ودمغهم بالذل والخزى
والافتضاح ويفتتح الصارمى قصيدته
بالغزل على عادة الشعراء القدماء قائلا :
(٥١)

كشفن عن تلك الوجوه الصباح
اذ رمت العيس ليوم المزاح
وجئن يخلن يعاتبننى
يبسمن عن دركلون الأقاح
وفيها يقول عن الهجوم على بته وتحريرها
من البرتغاليين :

أطوى الفلا واليم فى فيلق
يطفىء ضوء الشمس والجو صاح
حتى اتينا بته بالضحي
ثم نزلناها بأرض مراح
قلت لأصحابى لا تحزنوا
من عزه الله فلا يستباح
اصطنعوا الصبر ولا تجبنوا
عند الوغى فالجبن لؤم صراح
ثم اعلموا لا بد للمرء من
موت وبالهدي فيه الفلاح
فامثلوا الامر ولا قصرُوا
وجردوا اسياقهم والرماح
فاقتحموا السور كأسد الفلا
واشتدت الحرب وضرب الصفاح
كانما القتل بارجائها
من فئة الافرنج صرعى طراح
كأنهم اعجاز نخل بها
منقعر من عاصفات الرياح

فانهزم الافرنج من بته
بالذل والخزى وبالافتضاح
بعدا لهم بعدا وسحقا لهم
من قوم سوء ووجوه قباح
بعزم سلطان بن سيف الذى
أباد اهل الكفر يوم الكفاح
ويكثر القصص الذى يصور بطولة
سلطان بن سيف محرر مسقط المنتصر على
البرتغاليين فى كل مكان وجدوا فيه فى عمان
وسواحل الخليج والساحل الشرقى لافريقيا
وبعض هذا القصص دارحول وقائع حقيقية
كالرواية التى تسرد حكاية الهندي البانيانى
سكيبلة الذى كان هو واخوه نروثم يعملان
مع البرتغاليين وكيف حاول القائد البرتغالى
إجباره على أن يزوجه ابنته الهندية الجميلة
وكيف رفض البانيانى ذلك ثم تظاهروا
بالموافقة واتصل برجال الامام سلطان بعد
أن استعان بالجميلة فاتلف طعام البرتغاليين
ونصح العمانيين بالهجوم فجر يوم الاثنين
لأن البرتغاليين يعجزون عن القتال لكثرة ما
يشربون من خمور وما يأكلونه مساء الاحد
(٥٢)

ومن الادب الفصيح المواعظ والرسائل
التي كان يكتبها الزهاد والعلماء من اهل
الادب للامام ناصر والامام سلطان وقد ذكر
احداها السالمى فى تحفة الاعيان وهى
فصيحة اى موعظة وجهها الشيخ سعيد بن
احمد لاحد الامامين ناصر او سلطان لان
الناقل لم يعرف لايهما. وهى طويلة غطت
نحو سبع صفحات من كتاب تحفة الاعيان.
وتبدأ الموعظة بالبسملة وحمد الله والدعاء
للامام وللامة بالرحمة والنصر وقهر الاعداء.

بعض قصائده ابياتا.. الخ والقصيدة الثانية
التي أحفظ منها ابياتا مطلعها :

الله اكبر جاء الفتح والظفر
واشرقت في الدياجي الانجم الزهر
واصبحت سبل الاسلام واضحة
اعلامها واستقام السمع والبصر (٥٥)

وواضح ان معنى البيتين يتضمن فيما
يتضمن التنويه بانتصار العمانيين على
الغزاة البرتغاليين فالفتح والظفر واشراق
الانجم في الدياجي ووضوح سبل الاسلام
واعلامها تدل على ان الهزيمة قد الحقت
بالمعتدين على بلاد العرب والمسلمين. واكبر
شعراء ايام الامام بلعرب بن سلطان
(١٠٩١ - ١١٠٤هـ) هو الحبس راشد بن
خميس بن جمعة وقد اشاد بشاعريته
السالمى في تحفة الاعيان وكتب له ترجمة
وافية ذكر فيها ان للحبس مدائح في الامام
بلعرب وله فيه رثاء ومدائح في غيره من ائمة
اليعاربة وله مدائح نبوية على عدد حروف
المعجم صدر بها ديوانه الذى فيه من فنون
الشعر شيء كثير (٥٦) ولم يصل الينا هذا
الديوان. ومع هذا فان في القطعة التى ذكرها
السالمى وهى من قصيدة نونية في مدح
الامام بلعرب ابياتا تفخر بانتصارات
العمانيين على البرتغاليين ولا سيما قوله :

وقائل من ملوك الارض خائفة
منه وتحمده في السر والعلن
ومن اذا سار في جيش تضيق به
وسع البلاد ووسع السهل والقنن
جيش يبيد العدا في البر يعقبه
جيش يبيد اهيل الشرك في السفن (٥٧)
ولا ريب ان المقصود بـ (اهيل الشرك في

واسلوبها فصيح والفاظه مختارة وعباراته
واضحة يقل فيها السجع وتكلف البديع
واستعمال الغريب.. وهى على أية حال
نموذج جيد يمثل رواج أدب المواعظ في هذا
العصر المتأخر .

ويتولى سلطان بن سيف ويتولى الامامة
بعده ابنه بلعرب بن سلطان سنة ١٠٩١هـ
فقام بالحق وسار بالعدل وعمر جبرين وبنى
فيها حصنا وانتقل من تروى اليها... الخ
ومن اطراف ما روى المؤرخون من اخباره
وصول رجل من تونس يدعى الشيخ عمر بن
سعيد الجربى الاباضى وقد سر الشيخ
المغربى بأحوال عمان ولكنه رأى مجالس
العلم بها قليلة فكتب للإمام موعظة تنصحه
بأن يحث الرعية على طلب العلم وإقامة
المجالس وعمارة المدارس. وهى موعظة
طريفة واسلوبها بعيد عن التعقيد يختلف
عن اساليب مواعظ العصور المتأخرة المثقلة
بالسجع وبانواع البديع المتكلف (٥٣).
وطرافة هذا الخبر تتجلى من دلالة على
اهتمام العمانيين بالإباضية بدعم علاقاتهم
بأباضية المغرب والتعاون وياهم في المجالات
الدينية والثقافية والافادة مما ينجم عن هذا
التعاون من منافع سياسية (٥٤) .

وقد نشط الشعراء في مدح الامام
بالعرب. يقول السالمى .. وقد كثر الناس في
الثناء على هذا الإمام، ورأيت في مدحة ديوانا
حافلا محتويا على قصائد طنانة بلغت من
فنون البلاغة مبلغا عظيما. وعلى هوامشها
تنبيهات على انواع البديع في الابيات وقد
غاب عنى هذا الديوان فلم اره منذ زمان
وانما رأيته ايام الصغر واحفظ من اوائل

« واخذ من النصارى ممباسا والجزيرة الخضراء وكلوة وبته وغيرهن من البلدان التى بالزنج ومن البلاد التى بالهند. كذا قيل والصحيح ان ممباسا وكلوة اخذا والده الامام سلطان بن سيف » (٥٩). وقد مر بنا شعر محمد بن مسعود الصارمى الذى يصف هجوم سلطان على (بته) فى شرقى افريقية واقتحام حصنها واحتلاله، وطرد البرتغاليين منه وأرجح الظن ان هذه الحملة البحرية البرية هى التى طردت البرتغاليين ايضا من ممباسا وغيرها من المواقع على الساحل الافريقى. وممن اشار الى الغزاة البرتغاليين والانتصار عليهم شاعر آخر غير معروف هو محمد بن صالح المنتفقى البصرى ساكن الصير، ويبدو انه شاعر عراقى نزح اليها، ورد ذلك فى قصيدة رثى بها سيف بن سلطان بعد وفاته سنة ١١٢٣هـ. ويقول السالمى انه لم يظفر بها كلها وانما وجد منها قطعة لا تخلو من تحريف. والذى يهم موضوعنا منها قول المنتفقى فيها : (٦٠)

فسل النصارى ما رأوا من برهم
والبحر من تلك الجيوش الغاشية
كم احرقوا كم اغرقوا من مرة
كم ذوقوا ضربا يهد الناصية
كم مزقوا بددا فشبههم على
ضأن غشت فيها سباع ضاربة
ما بالكم اولاد الاصفر صفرت
جمر الوطيس وجوهكم يا صابية
ثم انقلبتم خاسئين ومسكم
نفخ الوبا فبطونكم كالخابية
وانشد مراكبه التى صدمت مرا

السفن) هم البرتغاليون الذين بقيت فلول منهم. وبعض سفنهم التى كانت تمارس القرصنة فى الخليج بعد ان فقدت صلتها بقيادتها ولم تبق لها قاعدة بحرية ترسو فيها. ولم ترو المصادر كثيرا من شعره مع انه كان اكبر شعراء العصر واكثرهم مدحا. للامام بلعرب وخلفه سيف بن سلطان (قيد الارض) الذى قضى على الغزاة البرتغاليين قضاء تاما وحارب النصارى فى جميع الاقطار وعمل لهم مراكب عظيمة فى البحر، وعظم جيشه وقوى سلطانه حتى قيل انه اجتمع له فى الجيش الذى دخل به الهند ستة وتسعون الف عنان (يعنى الحصان وراكبه) وكان له تسعون الف حصان ذكرها الحبس فى قصيدة خاصة بها سماها الخيلية وهى من اجود شعره كما يرى السالمى. وقد وردت فى بعض ابياتها عبارات وصور مستوحاة فيما يبدو من الحروب والحملات البحرية التى شنّها الامام قيد الارض على بقايا البرتغاليين كقول الحبس فيها يصف خيله :

كادت تكون مع الفتعاء طائفة
لو لم تكن بيدى فرسانها للجم
فكيف تقوى العدا يوما على شهب
بها الشياطين فى يوم الوغى رجموا
لم ينج منهزم منهم وملتجىء
لو أنه برؤوس النبق معتصم
تستغرق البر والامطار ساكبة
وتقطع البحر والامواج تلنطم (٥٨)

وبعد ان يروى السالمى القصيدة كلها يعقب قائلا : عن الامام قيد الارض :

كهم واهدتها بنادق حامية
الملك ثم الفلك ثم الناصرى
مع كعب رأس كالجبال الراسية
كم خرقت كم غرقت كم حرمت
من برشة حربية او باغية
كم غادرت جثث الكلاب مجافة
او جيفة في البحر تذهب طافية (٦١)

هذا ما جاء في القصيدة من الابيات التى
تصف اندحار البرتغاليين وسفنهم وتفخر
بقوة الاسطول العماني وشجاعة رجاله.
ومع ان هذا الشعر لا يرقى الى المستويات
الفنية العالية شأنه شأن اكثر ما قاله
الشعراء في احداث الغزو، فان وصف
الشاعر المنتفقى ما حل بالغزاة من الهزائم
وما اصابهم من الويل والقتل واسر في البر
والبحر لا يخلو من الانفاس الشعرية. أما
قيمه التاريخية التوثيقية فغاية في الاهمية
لأنها اوصاف شاهد عيان تصور على ما فيها
من مبالغات الاصداء المدوية التى بثها
الانتصار على الغزاة البرتغاليين في المحافل
الادبية وفي المجتمعات العربية في الخليج وفي
البلاد العربية والاسلامية الاخرى .

واذا استثنينا الحبس وهو شاعر فحل
يتأثر اسلوب ابي تمام والمتنبى ولا يسرف
اسراف شعراء عصره في استعمال البديع
فأكثر ما قاله الشعراء في الغزو البرتغالى
ضعيف. وقد لاحظ الدكتور على عبد الخالق
في قصيدة خلف بن سنان « على هذا النحو
يصور الشاعر فتوحات الامام (سلطان بن
سيف اليعربى ١٠٥٠ - ١٠٩١) على
البرتغاليين ويتحدث عن انتصاراته عليهم في
جزر زنجبار وممباسة ثم بمباى بأرض

الهند. وعلى الرغم من أنها حروب ضارية
وانتصارات عظيمة، الا ان تعبير الشاعر
جاء - كما ترى - غاية في الضعف والركاكة.
ولو أن الشاعر جرى على سجيته واطلق
لوجدانه عنان التعبير. ولم يتقيد بقيود
الزخرف واغلال البديع لاصاب القول، ولاثر
في القلوب ولما وصل شعره الى هذا الدرك من
الرداءة التى افقدته روح الاصاله واتقاد
العاطفة والنغم المطرب. والمعنى المستقيم
(٦٢) وأول هذا الكلام صحيح ولكن آخره
الذى بدأ بقوله ولو ان الشاعر جرى على
سجيته... الخ . قول فيه نظر لان خلف بن
سنان كان فقيها يحسن النظم على طريقة
الفقهاء ويعجز عن البث والتفنن في التعبير
والتصوير كما يفعل الشعراء فشعره
والحالة هذه شعر علماء وقلماء وجدنا فقيها
او عالما يستطيع التحليق مع الشعراء
المبدعين. والحق ان خلف بن سنان قد اطلق
لوجدانه العنان فعواطفه صادقة بادية
القوة، وابتهاجه بالانتصار على البرتغاليين
غير مصطنع ولكن موهبة الفقيه قاصرة،
وقدراته استنفدها اختصاصه بالفقه
واشتغاله بالقضاء وتأثره المستمر بالبلاغة
واساليبها والكلف بالبديع الذى اغرم به
شعراء العصور المتأخرة لا يمنع الموهبة
الشعرية المقيدة باغلاله من ان تنتفض مرة
او مرات من قيودها فتجيد هنا وهناك فتطلق
قطعة صغيرة رائعة او بيتا سائرا قادرا على
ارضاء كل الانواق في كل العصور .

وما يقال عن شعر ابن سنان ينطبق على
شعر ابن مسعود الصارمى وقد مرت بنا
قصيدته الحائية التى اشادت بانتصارات

سلطان بن سيف في عمان وفي شرقى افريقيا
فهو كما يقول على عبد الخالق لم يستطع
تصوير الحب تصويرا صادقا فغزلة تقليدى
فرضه عليه منهج القصيدة القديم . « ولم
يستطع تصوير رغبته في قتل الاعداء والذود
عن الوطن » وليس سبب ذلك ان نفسه كانت
موزعة بين عاطفة الحب والواجب الوطنى
كما يرى الباحث (٦٣)، فليس في شعره ما
يدل على اصالة الحب وقوة العاطفة لانه
يصطنع ذلك، اصطناعا في اول قصيدته
جريا على العادة الفنية التقليدية. لهذا جاء
تصويره للحب وللانتصارات على الاعداء
ضعيفا فاترا كما في قوله :

أطوى الفلا واليم في فيلق
يطفىء ضوء الشمس والجو صاح
حتى اتينا (تنة) بالضحي
ثم نزلناها بأرض براح

فالفيلق الذى يطفىء ضوء الشمس لا بد
ان يطفئها « في جو صاح » فكيف يمكن ان
يطفىء ضوءها اذا حجبها الغمام، فالعبارة
مقحمة اقحاما ثقيلًا من اجل القافية. وكذلك
الجار والمجرور (بالضحي) في البيت الثانى
فهى قلقة لانها الصقت الصاقا، أما عبارة
(نزلناها بأرض براح) فهى ركيكة باردة
ضاعفت ما في البيت من فتور .

اما المنتقى فنظمه اكثر برودة وفتورا .
بل هو أشبه بالنثر العلمى لا النثر الادبى
وقافيته فيها ما لا يطاق من الفهامة التى
يأبأها شعر الفخر والحماسة الذى لا يحتمل
مثل هذا الاسلوب الباهت والقافية المائعة
والنثرية المتعثرة التى جعلت هذا (الشعر)
اشبه بالنظم التعليمى المبسط. فارجع الى

القصيدة وهى طويلة كى تلاحظ صحة ما
اقوله عنها منذ اول بيت في النطق :

فسل النصارى هل رأوا في برهم
والبحر من تلك الجيوش الغاشية
كم احرقوا كم اغرقوا من مرة
كم ذوقوا ضربا يهد الناصية

وشاعر العصر الكبير المقدم بلا منازع هو
لحبس : « فشعره صورة لحياته من فخر
واعتراز بأصله ونسبه، كما كان صورة
حياة الدولة اليعربية وانتصاراتها (٦٤)
ولكن ديوانه لم يصل الينا فليس له ذكر بين
الدواوين المخطوطة التى ذكرها الدكتور على
عبد الخالق في آخر كتابه. ولا ريب في ان هذا
الديوان يضم قصائد او اشعارا تتغنى
بالانتصار على الغزاة وتقترب من الشعر
الحماسى القديم والمحدث لأن الحبس يمتاز
بموهبة شعرية متدفقة، وثروة لغوية كبيرة
واسلوبه حسن السبك قوى التعبير يتابع
اساليب كبار شعراء الاعصر العباسية كابن
تمام والمتنبى. وقد كانت للغزو البرتغالى
اصداء وانعكاسات وأثار في الادب المنثور لا
تقل أهمية عما وجدناه في الادب المنظوم.
وتلاحظ هذه الاصداء اول ما تلاحظ في
الرسائل الرسمية المتبادلة بين السلاطين
العمانيين وقادة البرتغاليين. وقد ذكر
السالمى رسالتين رسالة القائد البرتغالى وهى
اشبه بالانذار الى الامام سيف بن سلطان،
وجواب سيف. قال السالمى : وهذا كتاب من
النصارى للامام سيف بن سلطان
اليعربى :

الحمد لله فاطر السموات والارض أنت
تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون.

اعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطة، مسلطون على من يحل عليه غضبه، ولا نرق لشاكي ولا نرحم عبدة باكي، فقد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لا يمثل لأمرنا. قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد، وظهرنا في الأرض الفساد فان اعجبكم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. وان انتم اببتم وعلى غيكم تماديتم، فالحصون منا لا تمنع، والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع، لانكم اكلتم الحرام وضيعتم الجمع فابشروا بالذل والجزع، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون. فان اعجبكم كلامنا أننا كفرة فقد صار عندنا انكم فجرة، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، كثيركم عندنا ذليل، وعزيزكم عندنا قليل قد ملكنا الأرض شرقا وغربا، واخذنا منها كل سفينة غصبا. وقد أرسلنا اليكم هذا الكتاب فاسرعوا برد الجواب قبل ان ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادى عليكم بالفناء هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ذكرا. وقد انصفناكم وارسلنا اليكم جواهر الكلام والسلام .

وهذا جواب الامام لهم :

« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير انك على (كل) (ساقطة من النص) شيء قدير » . قد حصل الوقوف على هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فهذا من اقيح عيوبكم واشد واشنع. وبغيتم وذكرتم انكم كافرون الا لعنة الله على الكافرين، من تعلق بالاصول فلا يبالي بالفروع نحن المؤمنون لا

يصدنا عنكم ولا يدخلنا شك ولا ريب، والقرآن علينا قد نزل فهو رحيم بنا لا يزل وخبولنا برية بحرية وهمنا سامية عليه، ان قتلناكم فنعم البضاعة وان قتلتمونا فبيتنا وبين الجنة ساعة « لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله » وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال : الجزار لا يبالي لكثرة الغنم وان الله مع الصابرين... ان عشنا عشنا سعداء وان متنا متنا شهداء. الا ان حزب الله هم الغالبون، لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. فقل لصاحبك اذا رضح وشيد مقالته : حصل الوقوف على هذا الكتاب كصرير باب وطنين ذباب سنكذب ما قالوا ونمد لهم العذاب مدا. وما عندنا بعد ذلك الا الخيل تمطر بالويل والنار مظهرة العار، والسيوف مسقية الحتوف والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى، واطاع الملك الاعلى واختار الآخرة على الاولى. والصلاة والسلام على خير الانام محمد عليه افضل الصلاة والسلام (٦٥) .

ورسالة القائد البرتغالي ضعيفة وان اتبعت نهج الرسائل الديوانية العربية لابتدائها بحمد الله وانتهت بلفظة السلام وحدها والفاتحة والخاتمة فتجيد التعبير بأسلوب المسلمين ولعل كاتبها راهب يعرف العربية ومن الغريب ان تتضمن عبارة تصف البرتغاليين بالكفر وترد على لسانهم هم .

اما جواب سيف بن سلطان فنموذج جيد

للسرائل الديوانية الرسمية فقد افترضها بأحسن ما تفتتح به السرائل وهى الاية الكريمة : قل اللهم مالك الملك.. ورد على رسالة خصمه أحسن رد لا يخلو من منطق وحجاج بأقل لفظ واتم معنى ونجد الكلام مائل ودل. وقد استشهد فى انهاءها بأية اخرى ورد على التهديد بالتهديد والوعيد بالوعيد والخاتمة اجل وأروع ما فيها فلفظة السلام التى ختمت بها الرسالة ليست موجه للقائد البرتغالى لأنها آخر جملة الصلاة والسلام على النبى ومع هذا فورودها فى آخر الرسالة لفظة بارعة فى غاية الفطنة والذكاء . ولا اشك فى ان رسائل كثيرة من هذا النوع قد يتبادلها الطرفان ولكن المصادر لم تذكر سوى هاتين السرائلتين. والاسلوب ناضج بعيد عن التعقيد واستعمال السجع والمحسنات البديعية، مما يدل على اخذ كاتبها بالامر الواقع الذى تفرضه امور السياسة والحرب على الاسلوب. وكان ابن خلدون قبل هذا العصر قد نصح بالتزام الاسلوب المرسل فى السرائل السياسية. وقد ترجم وندل فليبيس السرائلتين المذكورتين الى اللغة الانجليزية ونقلهما الى العربية مترجم الكتاب عن النص الانكليزى^(٦٦) ولم يكلف نفسه مراجعة النص العربى الذى نقله المؤرخ الانجليزى عن تحفة الاعيان ولكن المترجم لم يكتف بهذا الخطأ الفاحش فاضاف اليه ترك الهوامش والفهارس التى اثبتتها وندل فليبيس ولهذا تعذر علينا معرفة اصل نص رسالة اخرى وجهها ملك ممباسا الى ملك ماليندى يحذر من البرتغاليين الغزاة عندما نزلوا عاصمته ممباسا بقيادة

أليدا سنة ١٥٠٥ م. ومن المحتمل ان تكون الرسالة المذكورة باللغة العربية لان حكام شرق افريقيا كانوا يستعملونها فى مراسلاتهم الرسمية والتجارية. ولم تتوفر لدينا النسخة الانجليزية لنعرف المصدر الذى نقل عنه المؤرخ الانجليزى. واذا لم تكن قد كتبت بالعربية فلا ريب انها حررت باللغة السواحيلية. وسواء كانت بالعربية او بالسواحيلية فهى تمثل صدى رسميا للغزو البرتغالى. واليك نصها كما جاء فى اللغة العربية لكتاب وندل فليبيس :

« بارك الله فيكم يا سيدى علي، اكتب اليكم هذا لابلأغكم ان سيدا عظيما مربهذه البلدة واحرقها وتركها خرابا.. وقد جاء الى البلدة بقوة ووحشية بالغة، حتى انه لم يترك رجلا او امرأة، كهلا او شابا.. بل واصغر طفل.. حتى اولئك الذين فروا من ضراوته.. وهو لم يكتف بقتل الرجال وحرقتهم بل واسقط حتى الطيور فى السماء. ان رائحة الجثث فى البلدة بلغت حدا شنيعا حتى أننى لا أجرؤ على الذهاب الى هناك، كما لم استطع التأكد او تقدير مدى ما نهبوه من ثروات من البلدة.. وأنا أبعث اليكم هذه الانباء السيئة فى سبيل سلامتكم »^(٦٧) ولم تقتصر انعكاسات الغزو البرتغالى على السرائل الرسمية المتبادلة بين الحكام العمانيين والافارقة فقد ظهرت كما قلنا فى الانواع النثرية الاخرى كالقصص والحكايات والافكار التى دارت حول الاحداث المختلفة. وقد اشرنا الى بعضها كقصص الهندي البانيانى نرويم مع فريرا قائد الحامية البرتغالية فى مسقط، وقصص

القتال العنيف الذى دار فى اثناء اول هجوم برتغالى بقيادة البوكريك ثم القصص الذى روى احداث القتال الذى دار حولها وفى داخلها فى اثناء هجوم العمانيين على المدينة المشهورة ووصف تفاصيل خطط الهجوم على البرتغاليين المتحصنين فيها والانتصارات عليهم واسترجاع المدينة منهم وطردهم الى الابد من عمان (٦٨) ويطول البحث ويتشعب اذا تتبعنا نصوص هذه القصص ودرسنا خصائصها الادبية واللغوية. ويطول ايضا اذا دخلنا فى التفاصيل الخاصة بالآداب الشعبية المنظومة والمنثورة التى صيغت باللهجات المحلية وتداولتها الاجيال المتعاقبة. وجمع بعض النماذج والنصوص المختلفة يحتاج الى استقصاء دقيق طويل لان المدون الباقي فى ذاكرة الشعب منها اقل من القليل شأن الآداب الشعبية عند كل الامم وفى جميع العصور .

اما النثر الأدبى التاريخى فتمثله المصادر القليلة التى اعتمدنا عليها فهى خير نموذج يصور قيمة هذا النثر ويشخص خصائصه الأدبية فكتاب تحفه الاعيان للسالمى والفتح المبين لابن رزيق يتفوقان على افضل انواع النثر الأدبى التاريخى المتحرر من السجع والازدواج وانواع التصنع

البديعى فهما لا يلجآن الى فنون التصنيع الا قليلا ويستخدمانها فى اعتدال وبلا افراط مترسمين خطى اوائل العصر العباسى، كالطبرى والمسعودى. ثم ان الكتابين كليهما مصدران للتاريخ وللآدب فى ان واحد. ولا سيما فى التحفة يجد مؤرخ الادب الكثير من الشعر الذى قيل كما يجد القصص والحكايات ونصوص العهود والرسائل السياسية وغير السياسية والمواعظ ورسائل العلماء والقضاة وغيرهم. وكان اعتمادنا على هذين الكتابين فى استخراج النصوص الشعرية والنثرية التى انعكست عليها أو فيها أصداء الغزو البرتغالى، فى حين ان مؤرخين آخرين كابن قيسر لا يقدم أى نص يشير الى هذا الموضوع من قريب او بعيد. اما صاحب كشف الغمة فلا نجد لديه كثيرا من نصوص الشعر والنثر الفنى. ويمتاز كتاب الفتح المبين بشدة عناية مؤلفه بالحياة العلمية والأدبية وكثرة العلماء الذين ترجم لهم ذاكرا مؤلفاتهم المختلفة ومهما يكن من أمر فإن ما يخص الغزو البرتغالى من النصوص الواردة فى المصادر المطبوعة والمخطوطة يمثل حقا مهما من حقول الدراسة الادبية للنثر التاريخى حول الغزو البرتغالى او تأثره به .

الهوامش

- ١ - اشتهر كثير من المؤرخين العرب بجودة نثرهم وبعنايتهم بالشعر والشعراء والادب والادباء كالجهمشياري وابن قتيبة والمسعودي والقاضي التنوخي وابن شداد وابن الساعي وعبدالله ومؤلفاتهم معروفة لا وجوب لذكرها هنا .
- ٢ - الاشارات التاريخية كثيرة في الشعر العربي في جميع عصوره. وقد نظم ابن المعتز أرجورة تاريخية طويلة في مدح الخليفة المعتضد ضمنها وصف الحوادث الدامية في القرن الثالث للهجرة الناجمة عن تسلط الجند الاثراك .
انظر : ديوان ابن المعتز .
- ٣ - انظر مؤلفاتهم الادبية والتاريخية الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة وتاريخ الادب العربي لبروكلمان وفي مؤلفاته الكثيرة عن كل واحد منهم .
- ٤ - انظر بحثنا : الادب في العصر المغولي والادب في العصر العثماني. كتاب حضارة العراق ١١/ بغداد ١٩٨٥ وانظر ايضا بحثنا في الموضوع نفسه مجلة كلية الاداب بجامعة بغداد ١٩٧٨ .
- ٥ - لم اعثر على اشارة واحدة الى البرتغاليين في كتاب السقاف تاريخ الشعر الحضرمي وهو بثلاثة اجزاء القاهرة . ولا في كتاب شعراء القطيف للشيخ المرهون النجفي ولم اعثر على نسخة واحدة لكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلوفي بغداد رقم البحث في المكتبات .
- ٦ - اجمع الباحثون من المستشرقين كراتشوفسكي وشوموفسكي وجابرييل فران وغيرهم والباحثون العرب والمسلمون على ان ابن ماجد كان دليل فاسكودي جاما وخالفهم الاستاذ وادلته ضعيفة .
انظر : ندوة عمان .
- ٧ - حسن صالح شهاب : اضواء على تاريخ اليمن البحري (١٩٥ - ٢١٦) فصل : التدخل البرتغالي ونهاية زعامة العرب الملاحية في المحيط الهندي ط ٢ بيروت ١٩٨١ .
- ٨ - سيأتي ذكر ذلك والتفاصيل في (الفتح المبين) لابن رزيق ط . القاهرة ١٩٧٧ م وفي (تحفة الاعيان) للسالمي، القاهرة ١٣٥٠ هـ ومن تاريخ عمان لوندل فيليبس، ترجمة محمد بن عبدالله القاهرة ١٩٨١) .

٩ - أكد المؤرخون العرب القدماء والمعاصرون دور النزاع الداخلي في نجاح الغزو البرتغالي وعزاه بعضهم الى تفوق اسلحة البرتغاليين النارية كالدافع والبنادق وقدم اسلحة العرب وسفنهم .

١٠ - تحفة الاعيان ١/ ٣٢٨ - ٣٤٦ والفتح المبين ٢٥٧ - ٢٦١

١١ - تحفة الاعيان ١/ ٣٤٩

١٢ - م . ن ٣٤٩

١٣ - تحفة الاعيان ١/ ٣٣٥

١٤ - أكد المعنيون بتاريخ عمان هذه الحقيقة انظر : وندل فيليبس تاريخ عمان ٣١ - ٣٧ ومراجعة في النسخة الانجليزية . صلاح الدين حافظ : صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي ٣١ - ٤٥ وهوامشه : سلسلة عالم المعرفة ٤٩ الكويت ١٩٨٢ .
ومحمد عبدالغنى سعودى : قضايا افريقية/عالم المعرفة ٣٤ الكويت ١٩٨٠
ولا سيما قسم : افريقيا والعرب عامى ٥٨ - ٦٣ وفي ٦٤ - ٦٧ وص ١٢٥ وفيه نخبة حسنة من المراجع العربية والاجنبية والدكتور سعودى من خيرة المتخصصين بالشئون الافريقية وانظر ايضا كتاب : العرب والملاحة في المحيط الهندى .

١٥ - المسعودى : مروج الذهب ٦/٢ - ٧ ط. الثانية القاهرة ١٩٤٨ وقد اشار اليه د. سعودى بلا هامش محدد .

١٦ - رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار/ ١٦٠ - ١٧٤ ط. المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٣٨ م وقد انتقد السالمى في تحفة الاعيان ابن بطوطة وفند بعض اقواله واخباره عن أهل عمان وقاضيه وبعض احوال اهلها. انظر تحفة الاعيان ١/ ٣٠٩ - ٣١٩ .

في فصل (ذكر قدوم ابن بطوطة على عمان) وعينا هنا ما جاء بالرحلة عن مقديشو وسلطانها واهلها وعن كلوا وممباسا وغيرها من جزر ومدن شرقى افريقيا وعلاقاتها الحميمة بالعثمانيين والحضارمة .

١٧ - سعودى : قضايا افريقية ٨٤ - ٩٠ و١٤٣ - ١٤٨ وهوامشه .

١٨ - المرجع السابق : نفسه وصلاح الدين حافظ. المرجع السابق ص ٣٥ - ٤٠ باب : جسور اللغة والدين بين العرب والافارقة .

١٩ - ابن رزيق : الفتح المبين ١٥٠ حيث يذكر تراجم العلماء العمانيين وبعضهم كان يقيم في زنجبار وانظر : وندل فيليبس تاريخ عمان الفصل الثاني ٢١ - ٣٦ .

٢٠ - على الشيخ يلحو : الادب الصومالي المعاصر : رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الطابعة قدمت لمعهد البحوث والدراسات العربية ببغداد ١٩٨٥ وللمؤلف نفسه : الادب الصومالي بحث للدبلوم مقدم للمعهد نفسه ١٩٨٤ . وانظر مقدمة كتاب (ابن نواس) للعقاد .

حيث يتحدث عن شخصية ابي نواس في الادب السواحيل . وتطرت الى هذا الموضوع كتب وابحاث كثيرة لمؤلفين عديدين نذكر منهم حسن محمود ، وحسن

- ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وعبيد بدوي وغيرهم .
- ٢١ - تشترك في هذا التصور التاريخي جميع تواريخ الادب العربي المتداولة انظر مثلاً كتاب عمر فروخ تاريخ الادب العربي ٤٢٦/٣ حيث خص ادب الجزيرة العربية بثلاثة اسطر فقط . وانعكس ذلك على دراسة للشعر العماني للدكتور علي عبد الخالق (انظر الهوامش التالية) ولاحظ ما ذكره محمد اسعد طلس في كتابه : عصر الانحدار ١٢١ - ١٢٢ وكتابه : ادب الدول المتتابعة في مواضع عديدة .
- ٢٢ - شوقي ضيف : وهو اول وافضل من كتب الادب في اقطار الجزيرة العربية بين مؤرخي الادب العربي المعاصرين . انظر كتابة الاخير : عصر الدول والامارات : الفصل الثاني والفصل الثالث . دار المعارف القاهرة ١٩٨٠ .
- ٢٣ - المرزباني : الموشح ٨٥ ، ٩٠ وابن رشيق : العمدة والشريف المرتضى : امالى المرتضى ٢٦٩/١ ذكره احسان عباس تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ٥٠ .
- ٢٤ - تفاصيل ذلك في كتب التاريخ الاسلامي لبروكلمان وفيليب حتى وحسن ابراهيم حسن وشفيق غربال ومحمد سليم وغيرهم .
- ٢٥ - حسن صالح شهاب : المرجع السابق ١٩٧ .
- ٢٦ - شوقي ضيف : المرجع السابق (عصر الدول) ٨٨ - ١١٠ وعبرة (الشعر على كل لسان) جعلها عنوان القسم الاول من الفصل الثالث .
- ٢٧ - شكاً من قلة المصادر جميع الذين كتبوا عن الادب في الجزيرة العربية تقريباً ومنهم د . علي عبد الخالق في مقدمة كتابه الشعر العماني والسقاف وعبد العزيز المقالح في دراساته عن الادب في اليمن ... الخ .
- ٢٨ - الشعر العثماني ٢٦ - ٣٣ و ٣٤ - ٣٩ باب : ملامح الادب من عصر بني نبهان وباب : الشعر في عصر اليعاربة وهي مباحث صغيرة موجزة ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤ وسنشير اليه بعنوان : الشعر العثماني في الهوامش القادمة .
- ٢٩ - شوقي ضيف : المرجع السابق ٦٢ ، ١٧٢ .
- ٣٠ - السقاف : تاريخ الشعراء الحضرميين .
- ٣١ - علي الشيخ منصور المرحون : شعراء القطيف ط . النجف .
- ٣٢ - اشرنا الى ذلك في الهوامش السابقة+ :
- ٣٣ - كراتشوفسكي : مع الخطوات العربية ١٧٣ - ١٨٤ بعنوان ربان فاسكودي جاما ط . دار التقدم . موسكو ١٩٤٨ . وانظر : تيودور شوموفسكي : ثلاث ازهار في معرفة البحار ٧٥ - ٧٦ القاهرة ١٩٦٩ ترجمة محمد منير مرسي .
- ٣٤ - شومو فسكي : المرجع السابق (هامش ٣٣) .
- ٣٥ - ابن ماجد : الفوائد في اصول علم البحر والقواعد : نشر جبريل فران المستشرق الفرنسي باريس ١٩٢٢ .
- ٣٦ - شومو فسكي : المرجع السابق ١١٨ .

- ٣٧ - المرجع السابق ١١٩ .
- ٣٨ - المرجع السابق ١٢٠ .
- ٣٩ - المرجع السابق المقدمة ص ١١ اولد روجي احد المستشرقين الروس الذي قدم للكتاب وامتدحه .
- ٤٠ - شوقي ضيف : عصر الدول والامارات ٦٢ .
- ٤١ - المرجع السابق ١٤٠ - ١٤٢ .
- ٤٢ - علي عبد الخالق علي : الشعر العماني ٣١ - ٣٢ .
- ٤٣ - الشعر العماني .
- ٤٤ - الأزكوى : كشف الغمة ١٠٨ نشر وتحقيق الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسي بعنوان : تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لآخبار الأئمة . وقد تكرم الدكتور محمود علي الداود بإهداء النسخة التي أهداها اليه محقق الكتاب . وهو اول سلسلة مصادر - التاريخ العماني (١) ابو ظبي ١٩٧٦ .
- ٤٥ - الأزكوى المرجع السابق ص ١٠٩ .
- ٤٦ - ونلد فيليبس : تاريخ عمان ٦٤ ترجمة محمد امين عبد الله القاهرة ١٩٨١ .
- ٤٧ - نفسة .
- ٤٨ - سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي ٥٨ وانظر الفصل الثالث القيم عن الغزو البرتغالي ٢٩ - ومنشورات وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٢ وامتاز المؤلف بالتفاتته البارعة الى سفر خلف بن سنان واستشهاده به خلال تتبعه الغزو البرتغالي .
- ٤٩ - شوقي ضيف المرجع السابق (عصر الدول) ١٧٢ .
- ٥٠ - تحفة الاعيان ٦٠/٢ - ٦٢ وقد ذكر اكثر أبيات القصيدة وانظر الشعر العماني ٣٥ - ٣٦ حيث اقتطع عددا من ابياتها .
- ٥١ - تحفة الاعيان ٧١/٢ - ٧٣ وهي قصيدة طويلة استشهد ببعض ابياتها . علي عبد الخالق : الشعر العماني ٣٦ - ٣٧ .
- ٥٢ - القصيدة من تحفة الاعيان ٦٤/٢ - ٦٥ وفي الفتح المبين ٢٨٦ - ٢٩٠ .
- ٥٣ - تحفة الاعيان ٦٥/٢ - ٧٠ .
- ٥٤ - تحفة الاعيان ٧٩/٢ .
- ٥٥ - تحفة الاعيان ٨٣/٢ .
- ٥٦ - تحفة الاعيان ٨٦/٢ .
- ٥٧ - تحفة الاعيان ٨٧/٢ .
- ٥٨ - تحفة الاعيان ٩٦/٢ - ٩٨ .
- ٥٩ - نفسه ٩٨ .
- ٦٠ - تحفة الاعيان ٩٩/٢ .

- ٦١ - تحفة الاعيان ٩٩/٢ - ١٠٢ وذكر القصيدة كلها .
٦٢ - الشعر العماني ٣٦ .
٦٣ - نفسه .
٦٤ - المرجع السابق ٣٧ .
٦٥ - تحفة الاعيان ١٠٦/٢ - ١٠٧ ومنه نقلنا نص الرسالتين .
٦٦ - وندل فيليبس : تاريخ عمان ٦٧ - ٦٩ حيث ترجم المغرب نص الرسالة من الانجليزية الى العربية ولم يرجع للنص العربي .
٦٧ - المرجع السابق ٤٨ .
٦٨ - تحفة الاعيان : وقد سرد تفاصيل هجمات ناصر بين مرشد على الحصن وانظر ٢ / ٦٢ - ٦٥ والفتح المبين ٢٧١ - ٢٧٩ .

